الإمـــام أبـــو زهـــرة

(١٣١٥-١٣٩٤هـ=١٨٩٨-١٩٧٤م)

قلق في عقل النظام

obeikandl.com

رغم فترة الحكم الشمولى وتكميم الأفواه التى عاشتها مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو، وفى الوقت الذى خفتت فيه أصوات قائلى الحق، ظل الإمام الفقيه «الشيخ محمد أبو زهرة» يقول الحق بصوت جهير، لا يخشى فى الله لومة لائم، فقد كان لهذا الإمام قوة لا تُغلب، فهو مع فقهه الصائب، وعلمه الغزير ذو حجج وجدل، يقتحم المعارك القلمية فى الصحف، والمصاولات اللسانية فى الندوات، فيُسيطر على الموقف بدامغ الحجة، وواضح البرهان، لأن الرجل ممتلئ بأصول الشريعة، بصير بتيارات العصر ودوافعه، عالم بما يحيكه المغرضون من مكايد، ثم هو صريح لا يارى ولا يدارى. لذلك كان موضع الهيبة والخشية يحذره معارضوه، ويؤيده أنصار رأيه فى حب خالص.

فى الوقت الذى كان فيه الكتاب والمفكرون الموالين للسلطة يتنافسون فى مدح الاشتراكية، ويشيدون بمنهجها فى تحقيق العدل: وزعم فريق منهم أنها من أصول الإسلام، كان الشيخ أبو زهرة معارضاً لهذه الآراء، فالإسلام شرعة سماوية فوق المذاهب الوضعية التى تتبدل وتتحول، وتظهر سوءاتها عند التطبيق.

شجاعة عالم:

هذا الرأى أغضب صاحب السلطان فى مصر وقت ذاك، فدعاه، لا ليناقشه بالمنطق الواضح، ولكن ليصيح به: أنت يا أبا زهرة تؤلف الكتب وتبيعها بالثمن الباهظ، وتعيش عيش المترفين، ثم تصيح فى الناس منددا بالاشتراكية غافلاً عن حقوق الكادحين والفقراء، وتقول أنك عالم من علماء الإسلام!!

بدأ المتحدث صاحب الجبروت حديثه مهاجماً للشيخ، وكان يعتقد أنه سيعتذر متراجعاً، ولكنه قال له فى ثبات وقوة حجة: أنا أؤلف الكتب داعياً إلى الله، يقرؤها المسلمون فى جنبات الأرض، خارج مصر وداخلها، ويسارعون إلى المناداة بإعادة طبعها حين تنفذ على وجه سريع فأستجيب، ثم أدفع الضرائب للدولة، وأعطى الزكاة للمستحق، وذلك كله مباح فى شريعة الإسلام، بل إنه فرض على من يقدرُ

عليه من العلماء، ولكنكم تصدرون الكتب مؤيدة سياساتكم، وتتحمل الدولة نفقاتها الكثيرة وتمتلئ بها المخازن الحكومية، وتوزع على الطلاب وغير الطلاب، فلا يقرؤها أحدا؛ فمن هو الصحيح؛ من يكتب لنفع المسلمين فيسعون لقراءة ما كتب، أم من يؤلف وتطبع الدولة مؤلفاته ثم تُركن على الرفوف؟

منطق قوى:

كان منطق الشيخ قوياً، فلم يستطع المسؤول جواباً، وبدلاً من الحرج، ترك الشيخ ينصرف ثم أوحى للمسؤولين عن القطاع الذى يعمل به لمضايقته وملاحقته، ولكن هذه المضايقات لم تُزد الشيخ إلا ثباتاً وتمسكاً بقول الحق. ليس فى مصر وحدها، بل وفى كل مكان ذهب إليه من بلاد العرب والمسلمين.

من ذلك أن «الشيخ أبا زهرة» قد دُعى إلى ندوة إسلامية كبرى في ليبيا، وكان ضيوف الندوة من كبار العلماء فى العالم الإسلامى. أراد الرئيس الليبي الراحل معمر القذافي أن يجعلهم يؤيدون ما يذهب إليه، ويوم افتتاح الندوة حضر القذافي ليلقي كلمة الافتتاح، ويقول إنه دعا إلى هذه الندوة ليقرر العلماء أن الاشتراكية هى المذهب الإسلامى، وأن يدافعوا عن هذا الرأى.

بعد كلمة القذافي عبست الوجوه، وتكدرت النفوس، ولم يتقدم أحد ليعلق على ما قاله الرئيس الليبي، ولكن «الشيخ أبا زهرة» طلب الكلمة، واتجه إلى المنبر وقال بشجاعة منقطعة النظير:

«نحن علماء الإسلام وفقهاؤه، وقد جئنا إلى هذه الندوة، لنقول كلمة الإسلام كما نراها نحن لا كما يراها السياسيون، ومن واجب رجال السياسة أن يستمعوا للعلماء، وأن يعرفوا أنهم متخصصون فاهمون، لا تخدعهم البوارق المغرية، وقد درسوا ما يسمى بالاشتراكية، فرأوا الإسلام أعلى قدراً، وأسمى اتجاهاً من أن ينحصر فى نطاقها، وسيصدر المجتمعون رأيهم كما يعتقدون، لا كما يريد رجال السياسة، فهم أولُو الأمر فى هذا المجال، ثم توجه الشيخ إلى زملائه قائلاً: هل فيكم

من يخالف؟».

فرأى الإجماع منعقداً على تأييده، فقال: الحمد لله أن وفق علماء المسلمين إلى ما يرضى الله ورسوله.

وبعد موقف «الإمام محمد أبو زهرة»، لم تستمر الندوة فى انعقادها أسبوعاً كما كان من المقرر لها من قبل، بل كان حفل الاستقبال هو حفل الختام - كما يقول الدكتور محمد رجب البيومى.

وكان الشيخ يرى أن الفقيه لابد أن يكون أديباً على درجة عالية من البيان، فالثقافة الإسلامية جزء لا يتجزأ، وكم لا ينفصل. فلابد لدارس الفقه والحديث والتفسير أن يدرس علوم الأدب، لأنه لا يستطيع التعبير عن نفسه إلا إذا رُزق البيان الناصع. والأئمة الكبار من الفقهاء كانو يملكون نعمة البيان، فاستطاعوا أن يضعوا المؤلفات القيمة. وما انحطت كتب الفقه فى العصور المتأخرة إلا لأنها كُتبت بأقلام لم تتذوق البيان العربى فجاء أكثرها شبيهاً بالأحاجى والألغاز.

وكان فضيلة «الشيخ محمد أبو زهرة» يحرص على المساهمة فى الندوات العلمية، مهما كان موضوعها، وحتى لو لم تتم دعوته إليها. فهو يرى أن الإسلام لم يترك كبيرة أو صغيرة فى أمور الدنيا والدين إلا وتصدى لها، ومن هنا يجب أن يكون للعالم الدينى المجتهد رأى فى كل أمر. ومن هنا كان حرصه على حضور هذه الندوات. وكان له آثار صوتية فى الندوات العلمية، لو جُمع مضمونها فى مؤلفات لبلغت عدداً كبيراً، إذ كان يحرص على أن يقول كلمة الإسلام جهيرة مدوية، فيتحول الموقف إلى النقيض.

الإسلام والسينما:

عندما عُرض فيلم «ظهور الإسلام» المأخوذ عن كتاب «الوعد الحق» للدكتور طه حسين، دعا بعض الكتّاب إلى تمثيل العصر النبوى على الشاشة باعتبارها عامل تأثير فى النفوس، وأُقيمت ندوة أدبية لتدعيم هذا الاتجاه، ولم يجرؤ المنظمون لها على

دعوة «الشيخ أبو زهرة» خوفاً من معارضته. ولكنه سعى إلى الندوة مستمعاً، وبعد أن تبارى المشاركون فى الحديث عن أهمية هذه الدعوة وأن للفن دوره المؤثر فى ذلك، طلب أبو زهرة الحديث، واضطر مُنظم الندوة أن يدعو الشيخ للكلام، فقال:

إن الذين يتحدثون عن أثر السينما فى الدعاية للإسلام بدليل انكباب الجمهور على مشاهدة فيلم «ظهور الإسلام» لم يوفقُوا فيما يدعون، لأننا نعلم أن هذا الفيلم لم يزد المؤمن إيماناً فوق إيمانه، ولم يردع فاسقاً عن غيه، ولم يدخل أحداً من ذوى الأديان الأخرى إلى حظيرة الإسلام، فهل نفدت كل وجوه الدعايات للإسلام، ولم يبق إلا تمثيل أحداث العصر النبوى بأعلام من صحابة رسول الله ﷺ وهل يُعقل أن يقوم ممثل اليوم بتمثيل دور «بلال» حين عُذب فى ذات الله، ثم يجده المشاهد فى رواية أخرى يمثل دور ماجن خليع؟ وهل يُعقل أن تضع ممثلة لبعض الصحابيات الماكياج فى وجهها، ثم تزعم أنها تمثل صحابية شهيدة ذهبت روحها فداء لدينها الحبيب؟ وماذا نصنع إذا وجدنا هذه الشهيدة فى فيلم آخر تأتى بما ينكره الإسلام فى بعض المشاهد المخلة بالآداب؟ أليست هذه إساءة واضحة للصحابيات؟

وهكذا بحجة قوية وبأسلوب سهل بسيط واضح من «الشيخ أبو زهرة» عارض رأى المؤيدين لموضوع الندوة، وكان لكلمة «أبو زهرة» أثرها فى عقول وقلوب المشاركين فخرجوا غير مؤيدين ورافضين للهدف الذى من أجله أُقيمت الندوة.

شتان بين حرية وحرية!:

وفى ندوة أخرى عن حرية المرأة، فوجئ المجتمعون بحضور «فضيلة الإمام محمد أبو زهرة» وقد طلب الكلمة ليقول مُعقباً على من يمنع التعدّد فى الزوجات ويرى تقييد الطلاق.

بصوت جهورى، صاح فى المجتمعين: يا قوم، أنتم تريدون حرية للمرأة المسلمة مثل حرية المرأة الأوربية، ونحن نرى قوانين التشريع فى ألمانيا وإيطاليا تتجه وجهة إسلامية، فتجيز الطلاق لدوافعه المعقولة، وتبيح التعدد لضرورته الملزمة، فهل

فقدت المرأة الإيطالية أو الزوجة الألمانية حريتها، حين اتجه قانون البلاد إلى ما يتجه إليه الإسلام؟

إن المرأة فى منزلها ذات حرية، ولكن الذين يطالبون باحتذاء الغرب، لا يرون الحرية إلا فى تمزق الأسرة، وتأكيد أسباب الفرقة والانفصام.

واستطاع الشيخ كعادته أن يستحوذ على اهتمام الحاضرين ويحوذ على تأييدهم لما يقول، لسلامة منطقه وقوة حجته: فقد كان «الشيخ محمد أبو زهرة» رجل شُجاع، جهر بما يرى، وبما يعتقد أمام الناس وأمام السلطان.

كانت له آراء فى قضايا الشورى، والربا، والحكم بالطاعة وغيرها وغيرها، وفى حدود ما يعتقد أنه الصواب، قال رأيه دون مواربة. وكانت له أفكار حول إصلاح الأزهر وقوانين الأسرة والأحوال الشخصية.

وكانت له مواقف مع سعد زغلول، ومصطفى النحاس، ومحمد نجيب، ثم مواقف أخرى مع جمال عبد الناصر والميثاق والاشتراكية والشيوعية، وغير هياب ولا وجل أعلن هذه المواقف.

الرأى الحق:

ولأنه كان شجاعاً، فقد خلص الحاكم النصيحة لأن صاحب الرأى المخالف يأتى للحاكم بجديد، والموافق يأتيه بما عنده ويرجع إليه صداه، ولكن الحاكم لم يكن يريد سوى رجع الصدى، فأصدر قراره بمنعه من الكتابة والفتيا، وصدرت قرارات مختلفة بحرمانه من التدريس فى الجامعة، وإلقاء الأحاديث العامة، وأوصدت أمامه أبواب التليفزيون والإذاعة والصحف، بل وصل بهم الأمر بأن قيدوا حريته فى بيته.

فقد وقع خلاف حاد بين أبو زهرة وبين جمال عبد الناصر فى أمور عدة منها: ما ذهب إليه الميثاق فى شأن الاشتراكية العلمية، التى رأى فيها الشيخ المبادئ الشيوعية، كما اختلف معه حول إعادة تنظيم الأزهر والمعاهد التابعة له. وحول

تحديد النسل. وفى كل هذه الخلافات ظل معتزاً بكرامته إلى أبعد الحدود متمسكاً برأيه الذى يعتقد أنه الحق.

كان يكره النفاق والتملق، حدث أن شارك فى مناقشة دكتوراه فى جامعة الأزهر للمرحوم الدكتور حسن صبرى الخولى عن المسألة الفلسطينية، وبصراحة الشيخ المعهودة فيه قال: إن الرسالة عبارة عن بعض التقارير الخاصة برئاسة الجمهورية، إن الطالب لم يكلف نفسه حتى بجهد ترتيب الصفحات، أو حتى إصلاح الأخطاء اللغوية الفادحة، وهمس أحدهم فى أُذن الشيخ بأن الطالب هو الممثل الشخصى لرئيس الجمهورية، فصاح أبو زهرة: «متحدث رسمى.. ممثل شخصى، تلك مسميات فى مكتب رئيس الجمهورية لا دخل لنا بها».

بين الميلاد والرحيل:

هذا العالم الشجاع الجريء فى الحق وُلد فى مدينة المحلة الكبرى فى ٢٩ مارس ١٨٩٨م و الموافق ٦ ذو القعدة ١٣١٥هـ، دخل الكُتاب والمدرسة الأولية، وحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم العامة، والتحق بالجامع الأحمدى فى طنطا سنة ١٩١٣م. فاتجه للعمل بالمحاماة، وحصل عام ١٩٢٧م على دبلوم دار العلوم، وعُين مدرساً للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم. وفى سنة ١٩٣٣م اشتغل بالتدريس فى كلية أصول الدين، وجمع بين التدريس فيها والتدريس فى كلية الحقوق من سنة ١٩٣٤ حتى سنة ١٩٤٢. عندما تفرغ للتدريس بالحقوق، وأصبح رئيساً لقسم الشريعة بها حتى أُحيل إلى المعاش سنة ١٩٥٨م. وشارك فى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية، وقام بتدريس الشريعة الإسلامية فى كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر عامى١٩٦٣- ١٩٦٤م.

وقد ظل متمسكاً بكل آرائه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى أن رحل فى ١١ إبريل سنة ١٩٧٤م (١٣٩٤هـ)(*).

(*) د. محمد رجب البيومى، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، الجزء الثالث، ١٩٨٠.